

الجرس و الإيقاع في القرآن الكريم

La cloche et le rythme dans le Coran

الدكتورة آسية داحو

قسم اللغة العربية و آدابها - جامعة البليدة 2

Email : assiadahou@yahoo.com

تاريخ القبول: 2019/09/23

تاريخ الاستلام: 2019/09/07

الملخص:

الملخص :

تعبير الموسيقى في القرآن الكريم صورة من صور التناسق الفني، و مظهر من مظاهر تصوير معانيه و بالتالي هي آية من آيات هذا الإعجاز الذي يتجلى في أسلوبه المتميز الرفيع. و لم يكن القرآن شعراً لتكون موسيقاه على غرار موسيقى الشعر الخارجية من تفعيلات متزنة متكافئة، و قواف مطردة متناظرة، و إنما هو نثر له خصائص النثر جملة، إلا أنه نثر من نوع فريد، نثر لم تعرف له العربية نظيراً في تراثها الأدبي.

وإذا كانت الحياة العقلية و الاجتماعية و الدينية التي جاء بها الإسلام مباغطة قوية للحياة الجاهلية، و قفزة نوعية في حياة الأمة العربية ، فإنّ هذه الظاهرة القرآنية الجديدة ظاهرة الموسيقى القرآنية، قد اتخذت سمة بارزة متميزة، يمكن وصفها بأنها مباغطة، حيث لم يحدث للغة العربية تطور تدريجي بل حدث إعجاز لأهل اللغة.

هذا ما سنتناوله في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: الجرس، الإيقاع، اللفظة و الفاصلة.

summary :

The expression of music in the Holy Quran is a form of artistic consistency and a manifestation of its meanings, and thus is one of the verses of this miracle, which is reflected in its distinguished style. The Quran was not a poetry to be like the music of foreign poetry of balanced balanced performances, and parallel rhythms symmetrical,

but it is prose has the characteristics of prose altogether, but it is a unique prose, a prose that did not know the Arab counterpart in the literary heritage.

If the mental, social and religious life of Islam is a powerful surprise to the life of the Jahiliyah, and a qualitative leap in the life of the Arab nation, this new Quranic phenomenon, the phenomenon of Quranic music, has taken on a distinctive feature that can be described as surprising. Gradually, but a miracle happened to the people of the language.

This is what we will discuss in this article.

The key words: the bell , the rhythm, the Word and comma

مقدمة

الموسيقى في تعبير القرآن صورة للتناسق الفني فيه، و مظهر من مظاهر تصوير معانيه و بالتالي هي آية من آيات الإعجاز الذي يتجلى في أسلوبه المتميز الرفيع، وكلامه العذب البديع ولم يكن القرآن شعراً لتكون موسيقاه على غرار موسيقى الشعر الخارجية من تفعيلات متزنة ومتكافئة وقواف مطردة متناظرة ، وإنما هو نثر له خصائص النثر جملة، إلا انه نثر من نوع فريد ، نثر لم تعرف له العربية نظيراً و لا مثيلاً في تراثها الأدبي و فيها القولي و الشعري 1.

وآيات القرآن الكريم، اشتملت على ما في القرآن من أسرار بلاغية، أعجزت الإنس والجن، وأعلن ذلك القرآن مرات عديدة، وطالب العرب بالاستعانة بمن شاءوا من علماء، وفصحاء، فقال تعالى ﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ 2

ومن منطلق ذلك الإعجاز وتلك البلاغة: توجهت نفسي للغوص في نقطتين هامتين من نقاط إعجاز القرآن الكريم، وهما: الجرس والإيقاع، واقتصرت فيهما بالتحدث عن ايقاع الفاصلة و جرس اللفظة لما لهما من أثر كبير في النفس و على الأذن. كما أنّ القرآن الكريم جاء موافقا لنمط العرب في لغاتهم وتصرفها وتحولها واختلافها، واعتمد على هذين السبيلين- الجرس والإيقاع- في طرق الحوار وعرض الأحداث.3

وإنّ الناظر إلى القرآن الكريم وبلاغته يرى بوضوح صوراً من صور اختيار اللفظ المتناسق مع جرسه، مما يجعل القرآن الكريم في أسى آيات البلاغة والفصاحة، ولا شك أن إلقاء الضوء على بعض تلك الصور وإظهار مدى إعجازها في القرآن الكريم وعليه، سيكون مقالنا مجيباً عن بعض التساؤلات.

فما هو الجرس والإيقاع، وما دورهما في الإعجاز القرآني؟

إنّ من خصائص السرد القرآني إيقاعه المثير، ولعله أكثرها تأثيراً في المتلقين الأوائل آل قريش، إيقاعه المعجز إذ حاولوا التأويل أو الخروج من المأزق وهم أهل الفصاحة والبيان، فنسبوه للشعر تارة فلما دحض ادعاؤهم، سموه سحراً وحقاً " إن من البيان لسحراً"، والإيقاع لم يكن في حد ذاته سبب الإبهار وإنما في انسجامه مع ما ينقله من حمولة دلالية يسمو بها إلى أعلى درجات البيان.

والإيقاع يعني به التكرار المنتظم، فهو أعم من الوزن، وهو تكرر لبعض الحروف أو الكلمات أو النغمات، أو لجو نفسي معين يوافق السياق علواً وهبوطاً، حزناً وفرحاً. ولفظ الإيقاع مشتق أصلاً من اليونانية بمعنى الجريان أو التدفق، وهو صفة مشتركة بين الفنون جميعاً، وتبدو واضحة في الموسيقى والشعر والنثر.

أما الإيقاع القرآني في "تمظهره يتخذ بعداً إعجازياً، مما يعطيه شرعية الحضور بوصفه مصطلحاً فنياً كرسه النص القرآني، وأوجده كتقنية فنية اضطلع بها وحده، ومن ثم فإنه مظهر من مظاهر معجزة القرآن"، والأثر الممتع للإيقاع إجمالاً " ثلاثي: عقلي وجمالي ونفسي.

أما عقلياً فلتأكيد المستمر أن هناك نظاماً ودقة وهدفاً في العمل.

و أما جمالياً فإنه يخلق جواً من حالة التأمل الخيالي الذي يضفي نوعاً من الوجود الممتلئ في حالة شبه واعية على الموضوع كله.

وأما نفسياً فإن حياتنا إيقاعية: المشي والنوم والشهيق والزفير وانقباض القلب وانبساطه وهو يتحقق في القرآن في أكمل آثاره ولا سيما الجمالي الذي يتسرب إلى النفس فيشعر به كالسحر 4.

فالإيقاع جعل النص القرآني يقف على حدود الشعر والنثر على حد سواء، فقد " جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً فقد أعفي التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة، وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية، و الفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاصيل، والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي، معني هذا أن إيقاع النص القرآني يتمثل في انتقاء حروفه وكلماته وأصواته، وتركيب جملة قصراً وطولاً وتتابع فواصله مع توافق ذلك كله مع سياقه وجوه النفسي5.

يعد الإيقاع صورة للتناسق الفني في القرآن الكريم، وآية من آيات الإعجاز المتجلي في أسلوبه المتميز، فالقرآن يحوي إيقاعاً موسيقياً يؤدي وظائف جمالية رفيعة، كما أنّ له نظاماً صوتياً وجمالاً لغوياً ينتظم باتساق حركاته وسكناته ومداته وغمّاته انتظاماً رائعاً، والجمال الصوتي هو أول ما التقطتها الأسماع العربية، ويظهر هذا الجمال في انتظام الحروف، وترتيب الكلمات، وعرض المشاهد المتنوعة، والتجارب المختلفة، كما لو أنها حية نراها رأي العين. فعندما نقرأ القرآن قراءة تدبر وتمعن، ندرك أنه يمتاز بأسلوب إيقاعي ساحر يستولي على الأحاسيس والمشاعر فهو بذلك يشكل صورة من صور الإعجاز القرآني التي لا تحصى ولا تعد، ومن بين هذه الصور الإعجاز اللغوي الذي يستعمل الفواصل التي أغنى الله بها العرب عن ولعهم بالقوافي والأسجاع، ولإعجاز الفاصلة القرآنية علاقة وطيدة بموضوع الآية بصفة خاصة، وبموضوع السورة بصفة عامة، وقد تحدث أغلب العلماء ممن كتبوا في إعجاز القرآن الكريم عن أهمية الفاصلة، وما لها من دور في إبراز الإعجاز البياني.

1. الإيقاع الصوتي المتميز للصور القرآنية

إنّ مفهوم الإيقاع من المفاهيم التي لم يتفق في تحديدها الباحثون، قدامى ومحدثون، ومع ذلك فهم يجمعون على الأثر الذي يحدثه الإيقاع الصادر عن الفواصل في النفس، والمتجلى في استنفاد الطاقة الشعورية عند الإنسان 6 فقارئ القرآن عندما ينتقل في تلاوته من سورة إلى أخرى ليشعر أنه ينتقل من جو إلى آخر، وكثيراً ما يحدث هذا الانتقال في ثنايا السورة الواحدة، وسبب ذلك كلّ يرجع إلى تنوع الفواصل وتعددتها، ويتجلى هذا الأمر في

قصار السور أكثر من الطّوال، لأنّ السورة القصيرة تجعل القارئ منتبها إليها وإلى جوها العام، فهو يلمس المناسبة بين الألفاظ ومعانيها، فلا المعنى سابق الفاصلة، ولا الفاصلة سابقة المعنى.

إننا نجد الفاصلة في القرآن تراعي المعنى والسياق والجرس وخاتمة الآية وجوّ السورة، وكلّ ما يتعلّق بجودة التعبير وجماليته، فقد شاع عن العرب اهتمامهم بالأصوات، "حيث كانوا إذا ترنموا يلحقون الألف والواو والياء، وما ينون وما لا ينون؛ لأنهم أرادوا مد الصوت"7. وقد كثر في القرآن الكريم ختم الفواصل بحروف المد واللّين، والحاق النون وفق الطّبيعة الإيقاعية للقرآن، ولذلك كان ورود النون بعد حروف المد كثيرا في القرآن، مبيّنا عن السر الصوتي المتجلي في جزء كبير في فواصل الآيات القرآنية، يقول مصطفى صادق الرافعي في هذا الشأن: «وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى...وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها أوبالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن»8.

ولتوضيح ذلك نقدم هذه الأمثلة :

لقد وردت الألف مقترنة بالنون بشكل كبير في فواصل سورة الرحمان: قال الحق تبارك وتعالى {الرَّحْمَنُ ﴿1﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿2﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿3﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿4﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿5﴾ ﴿9﴾، وقال أيضا في السورة نفسها: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿19﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿20﴾} ﴿10﴾، ففي كلا الموضعين حدث تمديد للصوت فتحقق الترتم.

-وردت الياء مقترنة بالنون في عدة مواضع من الفواصل القرآنية :

يقول جلّ شأنه في خطابه لنوح عليه السلام {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿28﴾ وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿29﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿30﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخِرِينَ ﴿31﴾} 11

-وردت الواو مقترنة بالنون في أجزاء عديدة من القرآن، فسورة الشعراء فيها تعاقب الياء والنون، وتعاقب الواو والنون، قال المولى عزّ وجلّ { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿23﴾ قَالَ

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿24﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿25﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿26﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿27﴾ {12

الملاحظ أنّ حروف المد واللّين وإلحاق النون تخلق جوا من الإطراب والمتعة بفضل ما تحدثه من نغم جميل، ينشرح له الصدر، ويهفو له القلب، وتستلذه الأذن، إنها بحق ظاهرة صوتية تثير فينا الشعور بالمتعة والجمال.

و القرآن الكريم حافل بشتى ضروب الإيقاع التي تحدث في النفس الشعور بالجمال الصوتي، ولذلك اخترنا سورا تكون نماذج توضيحية منها:

-سورة الأنعام:

سورة مكية، عدد آياتها مائة وخمس وستون (165) آية، تعالج هذه السورة موضوعا يتصل بالعقيدة، يتمثل في حقيقة الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة، حيث تعرف العباد برهم، ويسر وجودهم في الحياة، والمصير الذي سيؤولون إليه، مما يجعل اتجاه السورة كلّها من بدايتها إلى نهايتها يتجه نحو هذا الهدف المحدد 13

يقول الله تعالى في مطلع السورة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۚ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} 1 ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۚ وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ ۚ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} 2 ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۚ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} 3 ﴿ {14

إنّ الإيقاعات المديدة في مطلع السورة ترسم المعنى الكلّي لموضوعها ولحقيقة العقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد، فهي بذلك تخاطب العقل البشري وقلبه معا.

و في قوله تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُّكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۚ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} 33 ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ آتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُؤْمِنِينَ} 34 ﴿ {15.

في هذه الموجة من موجات السياق المتدفق يتجه الحديث إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، ليطيب الله سبحانه خاطر نبيه مما يلاقيه من تكذيب قومه له. 16

نلاحظ أنّ هناك تكرارا لفعل الأمر (قُلْ) الموجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث يمثّل هذا التكرار إيقاعا قويا يوحي بأنّ الأمر الله وحده، وأنّ الرسول إنما هو منذر ومبلّغ.

-سورة الحجر:

سورة الحجر سورة مكية، متوسطة الطول، عدد آياتها تسع وتسعون (99) آية، سميت بالحجر؛ لأنها تضمنت قصة أصحاب الحجر في ثناياها.

يدور موضوع السورة حول الرسالة المحمدية وموقف الجاهليين منها، قال الله تعالى:

{وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿6﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿7﴾ مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ ﴿8﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿9﴾} 17، كما أنّها تمثل نسيجا واحدا على الرغم من تنوع الفروع والأجزاء، إذ أنّ كل فرع أو جزء فيها يرتبط مع الآخر ارتباطا وثيقا، حتى تستوفي السورة الموضوع من جميع نواحيه وجوانبه. 18

هي تبدأ بالإشادة بكتاب الله الذي أنكره الكفار عنادا واستكبارا من دون حجة ولا دليل، ثم تلتفت انتباه هؤلاء الجاحدين إلى الكون العظيم البديع وخالفه العلي القدير، وفي آخرها إشارة لتثبيت الله قلب رسوله بما أنزله عليه من آيات، فهو الرسول المبعوث والمكلف بدعوة البشرية إلى توحيد الله عن طريق الترغيب والترهيب. 19

وسورة الحجر تتجه في فاصلتها اتجاها واحدا لا يتغير، تشكل في مجموعها وحدة جرسية تتناسق مع وحدتها الموضوعية، ففاصلتها النون والميم المسبوقتان بحرف مد تثير فينا الشعور بالمتعة والإحساس بالجمال، لأن النون والميم -كما أشرنا آنفا- من الحروف الطبيعية للموسيقى.

-سورة الكهف:

سورة الكهف مكية عدد آياتها مائة وخمس (105) آية، تنوع الإيقاع في فواصلها بتنوع الجو والموضوع، حيث سارت الفاصلة فيما من البداية إلى النهاية على نفس الحركة، وهي حركة الفتحة الممدودة، يقول تعالى في بداية السورة {لَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ

وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ { 20

و في وسط السورة يقول عز و جل { وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۗ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيهِمْ سُنَّةٌ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ } 21

و في ختامها يقول تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ } 22 ، كما نلاحظ تنوعا في حركة الروي، بين الدال والراء والباء واللام، ولو أنّ حرف الدال هو الغالب على السورة الكريمة، كما نلاحظ أيضا تساوفا بين بداية السورة ونهايتها، من خلال الآيات التي تدعو إلى توحيد الله سبحانه وتعالى.

- سورة طه

طه سورة مكية، عدد آياتها يقدر بمائة وخمس وثلاثين (135) آية ، افتتحت بخطاب يفيض رقة ولطفا، تتردد فيه أصوات اللين والمد مما يجعل الإيقاع متموجا رخيا، كما زاد الإيقاع عذوبة ورشاقة صوت الغنة الذي يتكرر مع النون الساكنة والتنوين 23

يقول الله تعالى: { طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَىٰ ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ } 24

افتتحت السورة بنفي إرادة الشقاء عن النبي- صلى الله عليه وسلم- من تتريل القرآن، واختتمت بتسليته عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم؛ لأنّ لهم أجل معلوما 25 ، يقول تعالى في آخر السورة { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ } 26، وفي ذلك تناسق وثيق بين المطلع والختام.

- سورة النجم

سورة النجم سورة مكية، عدد آياتها اثنتان وستون (62) آية، تميزها نغمة موسيقية عذبة من أولها إلى آخرها، ساهمت في تشكيلها فواصل موزونة، مقفاة، أضفت عليها الألف المقصورة مسحة جمالية.

الإيقاع في السورة متوسط الزمن تماشياً مع توسط الجملة الموسيقية، ويتضح ذلك في قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿19﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿20﴾} فلو قيل في غير القرآن {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ} لاختلت القافية، ولتأثر الإيقاع، وكذلك في قوله {أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿21﴾ تَلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿22﴾} 28

فلو قلت {أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تَلْكَ قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ} لاختل الإيقاع المستقيم وفسد، هذا لا يعني أن كلمة (الأخرى، إذن) ذكرنا لمجرد غاية موسيقية فحسب، بل لتحقيق غاية معنوية أيضاً 29 ، فاللفظة في القرآن تؤدي وظيفتها في السياق موازاة مع تأثيرها في الإيقاع الموسيقي العام، يقول "سيد قطب" معلقاً عن إيقاع هذه السورة: "فالسورة ذات إيقاع موسيقي خاص، يتجلى فيه التموج والانسحاب، وبخاصة في المقطعين الأول والأخير، فهو يتناسق بتموجه وانسيابه مع الصور والظلال اللطيفة في المقطع الأول، ومع المعاني واللّمسات العلوية في المقطع الأخير" 30.

-سورة القمر:

سورة القمر سورة مكية، تشتمل على خمس وخمسين (55) آية، تتميز بجرس إيقاعي متناسق، فهي موحدة الفواصل، تنتهي آياتها براء ساكنة، والراء حرف من الحروف

المجهورة والشديدة "وفي صفة التكرير نوع من القوة المضافة إلى بنية هذا الصوت" 31 إذا تأملنا هذه السورة نجد أنّ جو العنف والشدة يخيم عليها" من مطلعها إلى ختامها حالة مرعبة مفزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالنذر " 32 يقول تعالى: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿1﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿2﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿3﴾} 33.

وقد ورد في ثنايا هذه السورة ذكر لمصير الأمم الغابرة كقوم "عاد" مثلاً، حيث قال الله تعالى في حقهم:

{كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ ﴿18﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ

مُسْتَمِرٍّ ﴿19﴾ تَتَزَعُّ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿20﴾} 34

أما الآيتان الأخيرتان فإن جوهما كان مخالفا للجو العام للسورة، حيث تنبعث منهما السعادة والأمن والطمأنينة، قال عزّ وجلّ {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿54﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿55﴾} 35

-سورة الحاقة

سورة الحاقة من السور المكية، تعداد آياتها اثنتان وخمسون (52) آية، من أغلب آيات هذه السورة فاصلتها هاء ساكنة، والهاء -كما هو معروف لدى علماء الصوتيات- الأصوات الرخوة المهموسة، مما يمنح السورة نغما صوتيا متميزا. نجد أنّ لفظ الحاقة يتكرر ثلاث مرات في مستهل السورة، وفي نطقها مد وتشديد وسكت 36، مد الألف الساكنة بعد الحاء، وتشديد على القاف وسكت على الهاء الساكنة، ثم يتغير جو الإيقاع بتغير الحرف الذي يسبق الفاصلة في (الطاغية)، (عاتية)، وبعدها يتغير الإيقاع مرة أخرى إلى جو من الهلع والفرع، في قوله تعالى: {خُدُوهُ فَعُلُّوهُ ﴿30﴾ ثُمَّ الْأَجْحِمَ صَلُّوهُ ﴿31﴾} 37، ثم تنتقل الفاصلة من الهاء الساكنة إلى النون تارة وإلى الميم تارة أخرى، فنشعر عند قراءتها بالهدوء والسكينة. يقول تعالى {إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿33﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿34﴾} 38

إذّا من خلال هذا التنوع في حرف الفاصلة يحدث التغير في الجو العام للسورة، من فرع ورهبة إلى هدوء سكينه. - سورة الجن:

هذه السورة مكية عدد آياتها ثمان وعشرون (28) آية، ختمت فواصلها بألف مد مسبوقه بحرف متحرك، انتهت تسع عشرة آية منها بحرف الدال.

لا شك أنّ القارئ للسورة بقليل من الترتيل سيغمره شعور بالحزن والأسى، إنها قطعة موسيقية مطّردة الإيقاع، قوية التنغيم، ظاهرة الرنين 39.

يتعلّق موضوع السورة بالجن الذين يصفون حقيقة أمرهم، ويعرضون موقفهم من نبوة محمد (ﷺ) يقول عزّ وجلّ { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿1﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿2﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا

اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿3﴾ {40}، وجاء رد الرسول (صلى الله عليه وسلّم) بنفس الإيقاع الصوتي، قال الله تعالى { قُلْ إِنَّمَا أَدْعُرْبِي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿20﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿21﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿22﴾ } 41 - سورة المدثر:

سورة المدثر سورة مكية عدد آياتها خمس وخمسون (55) آية، تبدأ بندااء الله تعالى رسوله (صلى الله عليه وسلّم) وإسداء بعض الأوامر والنواهي إليه في الآيات من (1-7) ، حيث نجد الآيات تنتهي براء قبلها حرف متحرك مع تقارب في الوزن، ومنها: المدثر، أنذر، كبر، طهر، فإذا تغير الموضوع بانتقال الحديث إلى تصوير بعض أحوال الآخرة تغير إيقاع الفاصلة، فصارت راءً قبلها حرف مد ، قال تعالى {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿8﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿9﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿10﴾ } 42

فإذا انتهى الكلام على الآخرة وبدأ التهديد والوعيد للمكذبين تغيرت الفاصلة أيضا كما في الآية {وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿11﴾ } 43 وما بعدها من آيات، "وهكذا تشارك الفاصلة في رسم هذه اللوحات الفنية" 44

II. جرس اللفظة في القرآن الكريم

ومن أهم العناصر التي تسهم في الاعجاز الإيقاعي في القرآن الكريم عموما وفي آيات البعث والحشر خصوصا ، جرس اللفظة.

ورد في لسان العرب 45 عن الجرس ما يأتي:

جرست الماشية الشجر والعشب، تجرسه وتجرسه جرسا: لحسته ، وكذلك النحل: إذا أكلت الشجر للتعسيل ، وقيل الجرس: الصوت الخفي، ابن سيده : الجرس والجرس : الحركة والصوت من كل ذي صوت ، ويقال: جرس الطائر وأجرس : صوت ، ويقال سمعت جرس الطير إذا سمعت مناقيرها على شيء تأكله.

وجرست وتجرست : أي تكلمت وتغنمت به ، وفلان مجرس لفلان : يأنس لكلامه وينشرح بالكلام عنده.

من خلال هذه الاستعمالات المتعددة لكلمة (جرس) يبدو أن لها مفهوما مفاده الصوت الخفيف أو القوي ، وقد تعني مع الصوت الحركة كما ذهب إلى ذلك ابن سيده.

فجرس الحروف : صوتها المنغم ، وهي تختلف في صفاتها على حسب مخرجها ، وجرسها ، ونغمة صوتها عند ما ينطق بها ولذلك قيل : حروف الهمس، وحروف الاستفال ، وحروف الذلاقة، وحروف الصفير...وهكذا.

وجرس الكلمات : هو نغمتها وصوتها وإيقاعها ، الذي يحصل نتيجة تلاؤم بين حروفها وائتلاف هذه الحروف وتوافق أصواتها ، وحلاوة جرسها. وجرس العبارات : هو الإيقاع الصوتي الحاصل من التلاؤم بين كلماتها ، وتوافق أصواتها وحلاوة جرسها كذلك ، فالجرس يكن في الحروف والكلمات والعبارات وهو نوع من أنواع الموسيقى

للعبارات.

ولقد رأينا أنّ من أوجه التناسق الفني ذلك الإيقاع الموسيقي أو النغم الصوتي الناشئ من تخير الألفاظ ، ونظمها في نسق خاص ليتناسق ذلك كله مع الجو الذي تطلق فيه هذه الموسيقى وتعدد الوظائف التي تؤديها في كل سياق ، وقد يستقل لفظ واحد ليرسم الصورة بجرسه الذي يلقيه في الأذان الناتج عن تخير حروفه ، وبنائها ليتناسب بصورة بديعة مع المعنى المراد تصويره ليكون هذا قمة جديدة من قمم التناسق الفني في القرآن" وهكذا كان التناسب القرآني في جرسه ، وإيقاعه معجزة جرسية ، مثلما كان في بيانه وتشريحه وأدابه" 47

فاللغة نوع من الموسيقى وجهازنا الصوتي أشبه بمجموعة من الآلات الموسيقية تصدر عنها الألفاظ بنغمات مختلفة وبدرجات متباينة " وتبعاً لمخارج الحروف ، وصفاتها يكون اختلاف الكلمات صوتياً في الوضوح والشدة والسرعة وفي الرنين والإيقاع ، فبعض الكلمات يبدو خافتاً ، وبعضها يظهر مجلجلاً، وبعضها خفيف التموجات يجري كالماء وبعضها تسمع له ما يشبه الخفيف أو الخريز ، وبعضها له نقرات كالدفوف ، أو طرقات كمطرقة الحداد ، وبعضها تحس فيه صلابة ، وبعضها تلمس فيه الرخاوة ، واللين ، وبعضها هواء يسمح بالتموج الصوتي ، والطواعية الموسيقية كحروف المد ، وبعضها له غير ذلك من الصفات التي تجعل للكلمة في النفس أثراً موسيقياً خاصاً" 48 ولقد وجد العرب في لغتهم مرونة و طواعية كبيرة فسخروها لإرضاء ميلهم و ولعهم بالإيقاع

والنغم الصوتي اللذيذ ذلك أن العربي بفطرته ميال إلى الإيقاع فالنفس البشرية طروب بطبيعتها وأن جميع انفعالاتها ومطامحها واندفاعاتها إنما تتجلى في تعبير موقع موزون هو بيت شعر موزون أو فقرة مسجوعة متوازنة.

كما أن العرب كانوا أمة أمية تعتمد على السماع في مختلف أغراضها ، أكثر من اعتمادها على القراءة والكتابة وكان من آثار ذلك أن أصبحت الأذان العربية دقيقة التمييز بين الأصوات المختلفة شديدة الإحساس برنينها وإيقاعها. 49

ولشدة ولعهم بالإيقاع لم يكتفوا باستعماله في صياغة الشعر بل زينوا به كثير من أصناف كلامهم المنثور ، ويظهر ولع العرب وشغفهم بجمال الإيقاع في كثرة أسجاعهم، وفي الازدواج ، والتوازن، والترصيع في كلامهم، فلقد "ازدانت العربية بزينة الإيقاع منذ نشأتها نظماً ونثراً وما التنوين والإعراب سوى بعض آلات الموسيقى اللفظية ، وما التسجيع والتوازن والازدواج، والاتباع، وأنواع البديع اللفظي، وقوانين الإعلال والإدغام ، سوى مظاهر أخرى لاهتمام العرب المفرط بجمال الرنة وحسن الإيقاع" 50 .

ولقد كان أول ما أحسه العرب من القرآن جرس ألفاظه وإيقاع عباراته، إذ أنه لما قرئ عليهم " رأوا حروفه في كلماته وكلماته في جملة ألحاناً لغوية رائعة كأنها لإتلافها وتناسبها قطعة واحدة قراءتها هي توقيعها". 51 وقصص تأثرهم بأصواته كثيرة، فقد روى صاحب السيرة أن أبا سفيان بن حرب و أبا جهل، و الأخنس بن شريف خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ، وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل منهم مجلساً يسمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا ، و قال بعضهم لبعض:

لا تعودوا فلو رآكم سفهاؤكم لأوقعتم في نفوسهم شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا، وتكرر ذلك في الليلة الثالثة ، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك 52.

وإنّ أول ما شدني لأيات البعث والحشر -حينما أكببت على تلاوتها- جرس ألفاظها المتميز

الذي يتناسق بشكل مذهل بديع مع المعنى المراد تصويره ، سواء كان هذا اللفظ مفردا مستقلا أو كان متجاورا مع ألفاظ أخرى ، فالملاحظ أن القرآن قد اختار ليوم القيامة أسماء ذات دوي ورنين لتتناسب مع جو الهول والرعب الذي يريد أن يرسمه فسماه الواقعة ، الحاقة ، الطامة ، و الصاخة ، القارعة ، و هي أوصاف ذات صدى وترويع تحرك النفوس وتهزها من الأعماق.

فالواقعة بمعناها وبجرس اللفظ ذاته ، بما فيه من مد ثم سكون ، تُلَقَى في الحس كأنها هي ثقل ضخمة ينقض من علٍ ثم يستقر لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال. 53 هذا الجرس المدوي الذي حملته اللفظة الناتج عن المد قبل القاف ثم السكون في "عه" ليتناسب مناسبة دقيقة مع الصورة المراد رسمها لهول هذا اليوم ، وليناسب مع مطلع السورة " إذا وقعت " في إبهام وتخويف " ، ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه كأنما يتوقع له الحس أرجحة يحدثها حين يقع ، وبلي السياق هذا التوقع فإذا هي خافضة رافعة .

وإذا الأرض ترح رجا ، والجبال تبس بسا فتصير كالهباء المنبث .
ولفظ الحاقة أيضا له جرس خاص يشبه الجرس الذي قلت أن لفظة الواقعة تتمتع به ، جرس يوحي بهول الحدث فكأنما هناك شيء يرفع ثم ليلقى من عل ، ليستقر في مكانه لا يتزحج ، هذا الإيحاء التصويري ناتج عن مدة الحاء بالألف، واستقراره في تشديد القاف التي تليها، وأخيرا الانتهاء عند التاء المربوطة التي يوقف عليها بالسكون لتتقلب إلى هاء وهو أصلها، "ويشعر النطق بضغط ثقيل على الحنجرة ، بحكم تلاقي حرف الحاء والقاف، والفصل بينهما بالألف الساكن الذي اقتضى تشديدا على حرف القاف ، ويوحى وكأن قوة تجتذب شرايين العقل والمخ و الدماغ لتنضغط على قوة تتصاعد من أسفل بالحاء وكذلك نشعرنا التقاء الحاء والقاف ، وتشديد القاف بعد ألف ساكنة بزهد في الحنجرة ، وبحركة صوت يتسم بالحنق الشديد هذا التفتت قوته من قوة هول يوم الحاقة" 54.
وجرس هذه اللفظة لم يطلق هكذا منعزلا دون فائدة، فإن اللفظة بجرسها تتناسق تناسقا عجبيا مع السياق الكامل الذي قد وردت فيه، والذي تنبئنا به الآيات الواردة بعدها في السورة ذلك أن " الجو كله في هذه الآيات جو تهويل وترويع وتعظيم وتضخيم، يوقع في الحس شعور بالقدرة الإلهية الكبرى من جهة وبضالة الكائن الإنساني بالقياس إلى هذه

القدرة من جهة أخرى، والألفاظ بجرسها ومعانها وواجتماعها في التركيب وبدلالة التركيب كله تشترك في خلق هذا الجو وتصويره، فهو يبدأ فيلقمها كلمة مفردة لا خبر لها في الظاهر "الحاقة" ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم "ما الحاقة" ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل، وإخراج المسألة عن حدود الإدراك "وما أدراك ما الحاقة" ثم يدعك فلا يجيب هذا السؤال، يدعك واقفا أمام الأمر المستعظم المستهول الذي لا تدريه ولا يمكن أن تدريه، يدعك لحظة مفعم الحس بالاستهوال والاستعظام، هذا الاستهوال وذلك الاستعظام الذي يلقي في الحس ناتج عن ذلك القرع الموسيقي المتولد عن جرس اللفظة وعن الإيقاع الشديد الناشئ عن تكرارها أيضا " وقد تركبت اللفظتان من حروف حلقيه وهي الحاء والحاء والعين وهي حروف لها أهمية في تركيب السياق وجرس القول، كما احتوتا على حرف القاف، وقد اجتمعت القاف والعين في لفظة الواقعة، والعين والقاف حينما يدخلان النسيج التركيبي للأصوات يكونان أكثر الحروف حسنا لأنهما أطلق الحروف وأضخمهما جرسا" 55

أما الطامة والصاخة فهولهما أشد، ووقعهما في النفس أكبر، وعلى الحس أعنف ذلك أن جرسهما متميز بالقوة والشدة " فالصاخة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها، وشقه الهواء شقا حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا، والطامة لفظة ذات دوي وطنين، تخيل إليك أنها تطم وتعم كالطوفان يغمر كل شيء ويطويه " 56

إذن فالجرس المنبعث من هذه الألفاظ المدوية "الواقعة، الحاقة، الطامة، الصاخة" منشأه تلك الحروف التي انتقت انتقاء خاصا في مناسبة جميلة مع المعنى المراد إلقاءه في الحس والنفس دون أن يتأثر تركيب الكلمة، أو يفسد المعنى بل تناسق الكل، الحرف في الكلمة، والكلمة مع المعنى وأهم من ذلك الجرس مع المعنى بل ومع السياق نفسه وهذه سمة قد انفرد بها القرآن الكريم وهي كما رأينا ملحوظة بشكل بين في الألفاظ التي ركبت منها آيات البعث و الحشر ذلك أن "القرآن يتخيّر حروف الكلمة و ينتقي أصواتها صافية الذوق في مخارجها لذيدة السماع، طيبة المجرى على اللسان، معتدلة في تأليفها، خفيفة في الفم، نازلة على أحسن هيئة في الإيقاع، قوية الإيحاء شديدة البعث لما تتضمنه من المعاني المرادة، والأهداف المقصودة من الآية الكريمة، لذلك نرى في تركيب حروف القرآن

تناسقا عجيبا بين الرخو منها و الشديد و المجهور والمهموس والممدود والمقطوع، ونجد أن اجتماعها مع بعضها يؤلف نغما مطربا يظهر أثره في صوت القارئ" 57 فالتنوع الصوتي لحروف اللغة العربية خاصية مهمة من الخصائص الإيقاعية للغة العربية، وقد تميزت بهذا التنوع لسعة مدرجها الصوتي ، وتوزعها توزيعا عادلا يؤدي إلى التوازن، والانسجام بين الأصوات.

أضف إلى ذلك أن العرب يراعون في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة وتوزعها وترتيبها فيها الانسجام الصوتي والتألف الموسيقي، ولذلك تجنبوا اجتماع الزاي مع الظاء والسين والضاد والذال والجيم مع القاف والطاء والصاد، وتجنبوا اجتماع حروف الحلق. فحروف اللغة العربية وأصواتها" واسعة الأفق، كاملة في مدرجها الصوتي، حسنة التوزيع للحروف والأصوات في هذا المدرج، متميزة المخارج والصفات ثابتة الأصوات عبر القرون، يتوارثها جيل بعد جيل، متنوعة الوظائف في بنية الكلمة، لكل نوع من الحروف والأصوات وظيفة في تكوين المعنى، وتثبيت أصله وقراره وتنوع شكله وألوانه مع تناسق بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعة وتوافق بين الصورة اللفظية والصورة المعنوية المقصودة 58. والصوت الموسيقي في القرآن هو الصيغة السليمة لدقة التلاؤم في تأليف الحروف وحسن تلاؤمها لمخارج نطقها 59 وقد قسم الرماني تأليف الحروف ثلاثة إلى أوجه: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا 60 والقرآن الكريم يحتل الوجه الثالث، ويذكر الرماني أن الفائدة في التلاؤم هي "حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ وتقبل المعنى له في النفس لما يراد عليها من حسن الصورة وطريقة الدلالة"، 61 ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، تشعر بتناسق عجيب في رصف حروفها في الكلمات، وفي الكلمات في الآيات، هذا حرف ينقُر، وذاك يصفر، وهذا يهمس، وهذا يجهر، "ومن هنا تتجلى جمال لغة القرآن، حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة، الجامعة بين اللين والشدة، والخشونة والرقّة، والجهر والخفية، على وجه دقيق محكم، وضع كلاً من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان، حتى تألف من المجموع قالب مدهش، وقشرة سطحية أخاذة امتزجت فيها البداوة في غير خشونة، برقة الحضارة من غير ميوعة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على

اختلافها بكل يسر وسهولة " 62 .
 فالواقعة، والحاقة، والطامة، والصاخة، قد تألفت من حروف متباعدة المخارج، يلمس لها في السمع حسن وذوق فني وهي ليست بالمتوعرة ولا الحوشية ولا بالساقطة العامية، جرت على العرف العربي الصحيح، معتدلة غير كثيرة الحروف، وبالتالي حازت على شروط الفصاحة للفظلة كما حددها ابن سنان الخفاجي في كتابه "سر الفصاحة" " 63
 وإذ ينشأ جرس اللفظة من تناسق حروفها بما فيها من صفات- وهذه سمة إيقاعية كما قلت في اللغة العربية- فإن المقاطع الصوتية أيضا تكون سببا للجرس والإيقاع والمقاطع الصوتية في اللغة العربية مقاطع إيقاعية ، ذلك أن اللغة التي تقوم على مبدأ المقاطع الممدودة، والمقصورة لغة إيقاعية أكثر من غيرها وذلك كالعربية، وتخضع المقاطع اللفظية في اللغة العربية إلى مبدأ أساسي يقضي بأن تكون ذات كميات من الوزن والوقت، ومقسمة إلى صنفين، مقاطع مقصورة ومقاطع ممدودة، فأما المقطع المقصور فهو الذي يتألف من متحرك لا يليه ساكن وهو خفيف، وأما المقطع الممدود فهو الذي يتألف من متحرك وساكن وهو ثقيل، وهذا المبدأ هو الثابت في اللغة العربية سواء أكان في الشعر، أم في النثر، وكل قراءة للقرآن أو للشعر أو للنثر لا يلتزم فيها به قراءة خاطئة ، والقرآن كتاب ناطق باللسان العربي المبين، و كل مقرر لا يخضع في قراءته لهذا المبدأ مخطئ متناول على مبادئ اللغة، و من هذه الخاصية أتى سحر الكلمة في اللفظة العربية وتأثر العرب بالشعر والخطابة، ومن هنا اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون معجزة محمد ﷺ هي القرآن، وما ذلك إلا لأن المقاطع اللفظية ذات وزن من الثقل والخفة، فإذا تناسب الثقل والخفة اندرج فيهما الإيقاع بيسر، لأنه يجد الظروف الملائمة لانبعاثه فيضفي على العبارة مزيدا من الحسن واليسر

64
 والألفاظ التي بين أيدينا يظهر فيها هذا التناسق الجميل في توزيع المقاطع بين الثقل والخفة ، فالواقعة تتركب من مقطع طويل (ثقيل) وثلاثة مقاطع قصيرة (خفيفة) ، أما الحاقة والطامة والصاخة فتتركب من مقطع طويل ومن مقطعين قصيرين.
 ولنتأمل المقطع الآتي في قوله تعالى {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿10﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿11﴾} فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿12﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ ﴿13﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿14﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ

مَوْضُونَةٍ ﴿15﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَيَّهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿16﴾ يَطُوفُ عَلَيَّهِمْ وَلِدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿17﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿18﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿19﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿20﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿21﴾ وَحُورٍ عِينٍ ﴿22﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿23﴾ جِزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿24﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا الْيَلَاءُ ﴿25﴾ ﴿26﴾ 65.

"السابقون السابقون" تسبق السين الباء في التصويت ، وتسبق أيضا القاف والنون ، فيعمل هذا التسابق في مخارج الأصوات، ومنه في الملفوظ، على بسط ظلالة على مدلولي السبق والولية في الرتبة ، و القاف هنا كنها تجسد خلاف ماجسدته هناك، فهي في " السابقون" و "المقربون" تعبر عن المكانة الرفيعة، عن حيز ذي حساية يكمن فيه الصوت المتوعر من الذي يحبس الهواء عنده، ثم يطلقه حرا بعد عناء، وتلك الفئة الموصوفة، رفيعة المقام، بعيدته فالمقطع الطويل المتكرر "سا" فهم لم يتبوؤوا مقام المقربين إلا بعد عمر قضوه في الكد والجد ، والعبادة الحقة ، وهم في آخر المطاف ينتهون إلى لين من العيش لا يخطر على قلب بشر هذا اللين الذي تعكسه النون الناعمة الغناء في عدوبة ، نهاية المقطع الخير في كل من اللفظتين " السابقون" و "المقربون" ومن ثم كانت الميم صوتين ذوي طابع لحنى وهو ماتبرزه لفظتنا " جنات" و" النعيم" بغننتهما المضاعفتين " ننا" و"نن" وبمقطعتهما الطويلين "نا" و" عيم "

أما المقطع الخير " عيم" فجمايلته طغت على كل جمال المقاطع في هذه الفقرة، إذ نراه ينطوي على إيحائية مؤسسها البعد والجلاء، فالعين صوت مصدره بعيد في حيز المخارج (الحلق) لكنه مع ذلك انصع الأصوات وأظهرها ، كذلك فإن نعيم الجنة بعيد المنال، غير أنه الآن أضحي حقيقة جلية لأصحابه، فصار البعيد قريبا ، والخفي ظاهرا.

وفي لفظة " المقربون" ففيها مقطعان قصيران يتوسطهما مقطع متوسط مقفل : م/ قَر/ر، والقريب ليس كالمقرب لذا دخلت الميم على اللفظة لتشيع بحضورها جوا من الحميمية والملامسة والحب، كما أضفت زيادة على المعنى، بأن هنالك فاعلا مقربا، فلم يحصل "القرب" عفوا، أضف إلى ذلك كله أن الميم والقاف والراء وذواتها، متقاربة المخارج أولئك : في المقطع "لا" الطويل ، وفي شدة الهمزة المكررة وصعوبة تأتيها ، إشارة إلى بعد

المنزلة ، وصعوبة الوصول إلى مرتبة الفئة الممدوحة المعلم باسم إشارة للبعيد . تدعمهما همزتا "الأولين" و "الأخرين" والمقطعان شديدا الطول : لين ، رين .
 "ثلة من الأولين" تتداخل المقاطع المقفلة والقصيرة ، وتتقارب شديدا : ثُل / دَ / تن / مِ / نَ ، فهي مقاطع محدودة تدل على العدد المحدود للسابقين المقربين .
 وفي دال "الثلة" إيجاء بقلة فونيماتها وضعف الثاء فيها ، يوازها عزة طائفة السابقين ، وقلبة تعدادهم .

"سرر" تتشاكل المقاطع والحركات في توال ، ثم الطبيعة التكرارية للراء ، فضلا عن مضاعفتها ، إشعارا بمجموع الأسرة المتصافة المجعولة للاستلقاء ، بحيث يتقابل عليها المتسامرون ، ويتبادلون كل ما هو طيب من الكلام والمشاعر .
 كما أن مجيئها في مقطعين قصيرين "س-ر ، ومقطع متوسط مقفل : رنْ ، ليلقي بظلاله على مجلس ينعم بالألفة والنس ، فهناك لقاء وتقارب ، وقبل ذلك تقرب إلى الله زلفى بالعمل الصالح ، فاستجابته بالتقريب من عرشه .
 "متكئين" يحدث صوت التاء عن طريق توكؤ الأسنان المامية بعضها على بعض ، تساعده ملاصقة طرفي اللسان للثة ، وبذلك يرمز إلى صورة المتقابلين وهم في حالة استرخاء على أرائك مبسوسة .

"بأكواب وأباريق" كأن بهذه الباءات المطردة تهدف إلى إيصال صدى قرع الأكواب والأباريق إلى أسماع المتلقين فيما يرسم ضم الشفتين عند "او" الأكواب المستديرة فموضع الشرب منه مستدير فلا عروة له ولا خرطوم .
 ومن لفظ "معين" نستوحي صفات التدقق والليونة والجريان ، جريان الميم والعين ، والنون المتسمة بالليونة والامتداد كما نستوحي صفاء أنهار الجنة وعدوبتها ، من صفاء العين ونقاوته ، ولعل ما صور امتداد الأنهار وعدم انقطاعها هو الكسرة الطويلة .
 "لا يصدعون عنها ولا يزفون" يتسبب التلطف بالبدال والزاي فيذبذبة على مستوى الأوتار الصوتية ، يزيد الزاي باهتزاز سطح طرف اللسان أثناء إخراج اهتزاز اطفيفا ، وهذا كله يوحى بالاضطراب والتذبذب الناتج عن السكر غير أن تدخل اللام المتصنف بالجلاء والجهر كان من شأنه نفي المعاييب عن خمر الجنة .

ثم تتوالى الألفاظ "فاكهة - يشتهون" وفيها الهاء ، وهو بعمق مخرجه وبعده إلا أنه يوجي باستفراغ ما في النفس من آه وأحزان لترتاح بعده فالنطق باللفظتين بحرفي الهاء يحيل على الراحة النفسية والمتعة الجسدية.

"حور عين" فصوائتها طويلة: ضمة تعقها واو "حو" ، ثم حرف العين الذي تعقبه ياء "عي" يوجي باستدارة الأحداق وما فيها من جمال وهيبة ، أضف إلى ذلك إقفال مقطعي لفظة "لؤلؤ": "لُؤ/لُؤ" ، وبما يحمله من دلالة الصيانة والإخفاء والكنز فهي مخبأة خصيصا لهؤلاء ، و اللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المخبوء الذي لم يعرض بعد للأنظار ولم تخدش عين ، ولم تثقبه يد ، وفي هذا كناية عن معاني حسية ونفسية لطيفة في هؤلاء الحور العين. 66 لتختتم الفقرة بسيئات متعاقبة مع صوتين آتيين من مخارج دنيا ، الميم من الشفتين و اللام من اللثة: "سلاما سلاما" في تناسق جميل مع ما بدئت به العبارة ، وكأن المراد إشاعة جو الأنس من خلال همسات السين ، وألفة نستشعرها من منبع هذه الأصوات المتقاربة. وبالنظر إلى إحصاء عدد الحروف في هذه المقطوعة ، فقد وردت اللام تسعا وثلاثين مرة ، والنون سبعا وثلاثين مرة والميم خمسا وثلاثين مرة ، فإن ذلك يوجي أن الخطاب القرآني هنا قد أجاد استغلال هذه الصوائت المتصفة بالليونة ليرسم مشهدا حسيا ونفسيا مؤثرا يتناسب والمعنى العام لهذه الفقرة.

وهكذا لو انتقلنا إلى جميع فقرات هذه السورة التي اشتركت في دلالة واحدة لرأينا أن النسق الصوتي الناشئ عن حروفها وحركاتها قد أسهم بشكل كبير في تقوية المعنى وتوضيحه مما كان له عظيم الأثر في المتلقين بما يحدثه الصوت في نفوسهم 67. ويعلل الرافعي سر هذه الموسيقى القرآنية فيقول: "تألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر ، لكان ذلك خللا بينا أو ضعفا ظاهرا في نسق الوزن وجرس النغمة ، وفي حس السمع وذوق اللسان ، وفي انسجام العبارة ، وبراعة المخرج ، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض ، ولرأيت لذلك هجنة في السمع كالذي تنكره من كل مرئي لم تقع أجزاءه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ، وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا ، وذهب بعضها منها إلى جهات متناكرة" 68. وبهذا الشكل و من خلال الجرس والإيقاع والتفاف مجموعة من العناصر ، بلغ القرآن

الكريم أعلى درجات الإعجاز كما قال السيد قطب "فمن نظم فصيح، إلى سرد عذب، إلى معنى مترابط، إلى نسق متسلسل، إلى لفظ، معبر إلى تعبير مصور، إلى تصوير مشخص، إلى تخييل مجسم، إلى موسيقى منغمة، إلى اتساق في الأجزاء، إلى تناسق في الإطار، إلى توافق في الموسيقى، إلى تفنن في الإخراج... وبهذا كله يتم الإبداع ويتحقق الإعجاز".69

- القرآن الكريم رواية ورش عن نافع

قائمة المصادر والمراجع :

1. أحمد أبو زيد، التناسب البياني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء د.ط. 1992م.
2. أشرف حسن محمد حسن علي الدبسي، الجرس والإيقاع والإيحاء والظلال في القرآن الكريم، دراسة بلاغية مجلة جامعة المدينة العالمية (مجمع) العدد العاشر سنة 2014
3. ابن سنان الخفاجي الحلبي، سر الفصاحة، تص وتعليق عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، 1372هـ، 1953م.
4. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت مادة (ج ر س)، م 1.
5. ابن هشام، السيرة النبوية، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ط2، مصطفى البابي الحلبي، 1375هـ 1955م
6. السيد خضر، الفواصل القرآنية دراسة بلاغية، مقال منشور في مجلة منار الإسلام الإماراتية، يونيو 1999م
7. الرماني، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل)، تح: محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، دار المعارف مصر ط 3 سنة 1976
8. بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، دار العلم للملايين م 1 ط 7 سنة 2004،
9. روز غريب، النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1952،

10. سمير إبراهيم وحيد العزاوي، التنغيم اللغوي في القرآن الكريم دار الضياء، عمان، الأردن، ط 2000، 1.
11. سيويوه، الكتاب، تحقيق، إميل بديع يعقوب، ج 4، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1991
12. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة الشرعية 32، سنة 2003، م 6 ج 2
13. صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دارالفاروق عمان، ج 1، 2016
14. عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن الكريم، دار الرائد العربي، م 1، ط 1، 1982
15. عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، دار الصفاء، الأردن، 1998
16. عمر السلاحي، الإعجاز الفني في القرآن، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1980
17. عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن، تونس، (د.ط) 1980
18. كاصد ياسر حسين، الجرس والإيقاع في تعبير القرآن، دار النشر مجلة آداب الرفادين العراق العدد 9.
19. محمد العياشي، نظرية إيقاع الشعر العربي، د ط، مطبعة المصرية، تونس، 1976 م
20. محمد، محمد المبارك خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتركيب، د ط، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1964
21. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005 م
22. نذير حمدان، الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، دار المنابر، ط 1، جدة، 1991 م

المواقع الالكترونية :

1. قويدر قيطون، مقال دور جرس اللفظة القرآنية في التناسق الفني في آيات البعث والحشر في القرن الكريم، مجلة اللغة العربية و آدابها جامعة الواد <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/44851>
2. نجلاء علي مشعل، مقال جماليات الإيقاع القرآني(قصة يونس عليه السّلام-نموذجا) ، كلية الآداب – كفر الشيخ – مصر نشر بتاريخ 2013.05.04، بموقع أهل التفسير <https://vb.tafsir.net/tafsir36164/>

الهوامش:

1. ينظر: كاصد ياسر حسين، الجرس والإيقاع في تعبير القرآن، دار النشر مجلة آداب الرافدين العراق العدد 9.
2. سورة الإسراء ، الآية 88 ورش عن نافع.
3. ينظر: أشرف حسن محمد حسن علي الدبسي، الجرس والإيقاع والإيحاء والظلال في القرآن الكريم، دراسة بلاغية مجلة جامعة المدينة العالمية (مجمع) العدد العاشر سنة 2014 ص 657.
4. نجلاء علي مشعل، مقال جماليات الإيقاع القرآني(قصة يونس عليه السّلام-نموذجا) ، كلية الآداب – كفر الشيخ – مصر نشر بتاريخ 2013.05.04، بموقع أهل التفسير <https://vb.tafsir.net/tafsir36164/>
5. المرجع نفسه.
6. ينظر: عمر السلاحي، الإعجاز الفني في القرآن، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1980، ص 226
7. سيبويه، الكتاب، تحقيق، إميل بديع يعقوب، ج 4 ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991، ص 575

8. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005م، ص150.
9. سورة الرحمان الآية 1-5.
10. سورة الرحمان الآية 19-20.
11. سورة المؤمنون ، الآية 28-31.
12. سورة الشعراء، الآية 23-27.
13. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة الشرعية 32، سنة 2003، م6 ج 2، ص1004.
14. سورة الأنعام، الآية 1-3.
15. سورة الأنعام، الآية 33-34.
16. ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 2، ص1005.
17. سورة الحجر، الآية 6-9.
18. ينظر: نذير حمدان، الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، دار المنابر، ط 1، جدة، 1991م، ص4.
19. ينظر: المرجع نفسه، ص402.
20. سورة الكهف، الآية 1-2.
21. سورة الكهف، الآية 53-55.
22. سورة الكهف، الآية 107-108.
23. ينظر: أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن، ص308.
24. سورة طه، الآية 1-8.
25. ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص2351.
26. سورة طه، الآية 130.
27. سورة النجم 19-20.
28. سورة النجم 21-22.
29. ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص104.

30. سيد قطب، في ظلال القرآن، ج، 6 ص 3404.
31. عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، دار الصفاء، الأردن، 1998 ص 276.
32. سيد قطب، في ظلال القرآن، ج، 6 ص 3424.
33. سورة القمر الآية 1-3
34. سورة القمر الآية 18-20
35. سورة القمر الآية 54-55
36. سيد قطب، في ظلال القرآن، ج، 6 ص 3682
37. سورة الحاقة الآية 30-31
38. سورة الحاقة الآية 33-34
39. ينظر سيد قطب، في ظلال القرآن، ج، 6 ص 3720.
40. سورة الجن الآية 1-3
41. سورة الجن الآية 20-22
42. سورة المدثر الآية 8-10
43. سورة المدثر الآية 11
44. السيد خضر، الفواصل القرآنية دراسة بلاغية، مقال منشور في مجلة منار الإسلام الإماراتية، يونيو 1999 م
45. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت مادة (ج ر س)، م 1 ص 501
46. صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دارالفاروق عمان، ج1، 2016 ص 90.
47. نذير حمدان، الظاهرة الجمالية في القرآن، ص 194.
48. أحمد أبو زيد، التناسب البياني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء د.ط. 1992 م. ص 215.
49. المرجع نفسه ص 218.
50. روز غريب، النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1952 ص 132.

51. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، مجلد 1، ط 1973، 9، ص. 152
52. ابن هشام، السيرة النبوية، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ط 2، مصطفى البايي الحلبي، 1375هـ 1955م، ص 315.
53. سيد قطب، في ظلال القرآن، ص 346.
54. عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن، تونس، (د.ط) 1980، ص.
55. سمير إبراهيم وحيد العزاوي، التنغيم اللغوي في القرآن الكريم دار الضياء، عمان، الأردن، ط 2000، 1، ص 93
56. سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، ط 20 سنة 2013 ص 79.
57. عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن الكريم، دار الرائد العربي، م 1، ط، 1982، ص 38.
58. محمد، محمد المبارك خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتركيب، د ط، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1964 ص 2.
59. عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن الكريم، ص 226.
60. الرماني، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل)، تح: محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، دار المعارف مصر ط 3 سنة 1976 ص 87.
61. المرجع نفسه ص 88.
62. بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، دار العلم لملايين م 1 ط 7 سنة 2004، ص 191.
63. ابن سنان الخفاجي الحلبي، سر الفصاحة، تص وتعليق عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، 1372هـ، 1953م، ص 66 وما بعدها
64. محمد العياشي، نظرية إيقاع الشعر العربي، د ط، مطبعة المصرية، تونس، 1976 م، ص 146
65. سورة الواقعة الآية 10-26.

66. سيد قطب، مشاهد القيامة ، دار الشروق ، ط7 سنة 1983 ، ص 110
67. قويدر قيطون، مقال دور جرس اللفظة القرآنية في التناسق الفني في آيات البعث والحشر في القرنين الكريم، مجلة اللغة العربية و آدابها جامعة الواد
<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/44851>
- 68 . مصطفى صادق الرافعي إعجاز القرآن و البلاغة النبوية دار الكتاب العربي ،م1 ط9 سنة 1973 ، ص154
69. نقلاً عن قويدر قيطون. مقال دور جرس اللفظة القرآنية في التناسق الفني في آيات البعث والحشر في القرنين الكريم، مجلة اللغة العربية و آدابها جامعة الواد

1.

